عظيم كل حياته عصامية

عباس محمود العقاد

ما هي العصامية؟

عند كثير من الناس أن العصامية هي مجرد الإنتقال من حالة الخمول والفقر إلى حالة الجاه والثروة.ولكن المرء قد ينتقل من الخمول والفقر إلى الجاه العريض والثروة الوافرة ولا يحسب من العصاميين، لأنه لم ينتقل هذه النقلة بعمله وحده بل كان الفضل في غناه ونفوذه للمصادفة ولا يندر أن تجيئه المصادفة بغير حسبان وعلى الرغم منه، ومن هذا القبيل إنني أعرف تاجرًا كان يتبرم بما عنده من البضائع الكاسدة ومنها الصبغة المعروفة بإسم «التفتة» والكبريت، ثم إنقطعت هذه الأصناف بعد إعلان الحرب العالمية الأولى فتضاعف ثمنها وأصبح الرجل من الأغنياء ذوي النفوذ، ولو إنه نجح في بيع بضائعه قبل ذلك ببضعة أشهر لأبقاه النجاح حيث كان من الخمول والكساد.

وعلى نقيض هذا قد يولد المرء في بيئة الجاه واليسار ويبلغ الذروة من العصامية، لأنه بلغها منفردًا بين أمثاله من أبناء الوجهاء والأغنياء. فالعصامي هو الذي ينجح في تكوين نفسه سواء نشأ في مهاد القائة أو مهاد اليسار.

والكلمة العربية مأخوذة من إسم عصام الذي سود نفسه ولم يكن لأحد غيره فضل في تسويده.

نفس عصام سودت عصامًا

وعلمته الكر والإقداما

والكلمة الإنجليزية التي تقابلها معناها «صانع نفسه» Self made وتقرب منها الكلمة الفرنسية التي تقول عن العصامي أنه إبن عمله Fils de ses œvres

وبهذا المعنى يحسب سعد زغلول من العصاميين، بل يحسب عصاميًا عدة مرات لا مرة واحدة، لأنه صنع نفسه في كل مرحلة من مراحل حياته على نحو لا يستطيعه أمثاله في بيئته.

كان عصاميًا وهو طالب، وعصاميًا وهو موظف، وعصاميًا وهو محام، وعصاميًا وهو قاض، وعصاميًا وهو وزير، وعصاميًا وهو نائب، وعصاميًا وهو زعيم.

الطالب العصامي

ينتمي من جهة أبيه وجهة أمه إلى أعلى طبقة من طبقات الريف في بلده، وكان قصاراه أن يتعلم القراءة والكتابة والحساب كما يتعلمها أمثاله، ثم يرشح نفسه للعمدية أو المشيخة، أو يقنع بمورده من زراعة الأرض وبيع محصولها، كما يصنع المئات من أوساط الفلاحين..ولكنه أتم التعليم ولم

يقنع بالقسط الذي يناله الصبي المتعلم في مكتب القرية، ولم يقنع بتعليم البندر والبلدة القريبة كمطوبس ورشيد، فأرسله أهله إلى القاهرة ليتم تعليمه بالجامع الأزهر، وهو يومئذ جامعة القطر كله يتبرك الآباء والأبناء بطلب العلم فيه قال لي من عاصر سعدًا في مكتب قريته أن التلاميذ كانوا يطالبون بإعادة ربع من القرآن الكريم أو ربعين على الأكثر مراجعة المعلم، فكان سعد لا يقنع بأقل من ثلاثة أرباع ولا يفعل ذلك لإرضاء معلمه لأن معلمه كان يضيق بهذا الإجتهاد الذي يرهقه بمزيد من المراجعة لو سار التلاميذ كلهم على منهج سعد في الإعادة، ولكنه كان يعيد ما يعيده ليفعل شيئًا يزيد به على النظراء.

وسمعت سعدًا يقول غير مرة عن فضل التعليم الأزهري يومذاك أنه كان تعليمًا حرًا بأفضل معاني الحرية، لأن الطالب كان يختار معلمه ويمتحن معلميه قبل أن يمتحنوه.

وكان هذا حقًا هو النظام المتبع يومئذ في الجامعة الأزهرية، فكان كل شيخ يجلس إلى حلقته ليلقي درسه في موعده، وكان يتفق في الوقت الواحد أن يلقي درس النحو أو الفقه أو البلاغة ثلاثة أو أربعة من العلماء ذوي الإجازات، فيستمع الطالب إلى كل منهم ويختار من يرتضيه بعد سماعه، ولا إكراه عليه لو إختار ثم عدل عن إختياره بعد حين.

وينجح سعد أكبر نجاح في ذلك الإمتحان: نريد إمتحانه هو لأساتذته ولا نريد إمتحان الأساتذة إياه. فإنه إختار أستاذًا لا نظير له بين علماء عصره، وإختاره بعد أن وازن بينه وبين جميع الأساتذة لأنه كان يلقي

دروسه حيث يقيم خارج الجامع، ولم يؤذن له يومئذ بإلقاء دروسه فيه.

ذلك هو مصلح الشرق العظيم جمال الدين..

ونحن نقول اليوم مصلح الشرق العظيم ويقولها معنا الشرق الإسلامي كله، ولكنه لم يكن في ذلك العصر عند الأكثرين إلا الزنديق جمال الدين، والملحد جمال الدين، ومنهم من كان يستكثر عليه إسمه فيذكره بإسم ضلال الدين أو الأفغاني الأفاق، ووصفته حكومة ذلك العصر حين طردته من مصر فقالت إنها «أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية، بأمر ديوان الداخلية، ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية، لإزالة هذا الفساد، من هذه البلاد، عبرة للمعتبرين، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين، البادي من أفعالهم الظاهرة، إنهم لا خلاق لهم في الدنيا والآخرة!..».

فلا ريب إنها كانت عصامية نادرة تلك التي ألهمت سعدًا أن يختار أستاذه على صعوبة الإختيار بين هذه الأقاويل وهذه الأباطيل، ولا ريب إنها كانت عصامية أندر منها تلك التي أفردته بين شبان المصريين الذين حضروا على جمال الدين بما بلغ من عظمة الزعامة بعد ذلك، فلم يكن منهم أحد قاد أمته كما قادها هو بعد جيل.

الموظف العصامي

وخرج الشاب المقدام من الطلب إلى وظائف الحكومة فعمل كاتبًا في «الوقائع المصرية»، فكان عصاميًا في هذا العمل، لأنه نهج بالكتابة

منهجًا لم يسبقه إليه الكتاب ، في عصره كان إلتزام السجع شائعًا بين الكتاب المعدودين من أهل البلاغة، ومنهم أساتذته الذين يقتدي بهم نظراؤه ولعل القاريء قد لاحظ من بيان الحكومة عن نفي جمال الدين أن السجع ملتزم حتى في أمثال هذه الأوامر الرسمية، وكأنما أراد كاتب البيان أن يلقي في روع القراء أنه يتكلم عن جمال الدين وهو كفؤ للكلام عنه ببلاغته وعلمه، فصاغ بيانه على ذلك الأسلوب..!

فلما أخذ سعد في الكتابة شق طريقه في الأساليب على سنة العصامية التي لا تمتاز بشيء كما تمتاز بقدرتها على شق طريقها لنفسها، وأطلق قلمه من قيود السجع المتكلف إلا ما كان في تعبيره عن المعنى أصح من أسلوب الكلام المرسل، وكتب بلغة كلغة العلم الحديث في تقرير المعاني وإجتناب الحشو والفضول، كقوله من فصل عن الشورى: «..ومن البديهي الواضح أن نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها، فإنها ليست إلا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها، أو مدلولًا عليها بنقوش مرقومة في الكتب، ولا يكفي في تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد في ذلك من وجود أناس يتخلقون بأخلاقها ويظهرون بمظاهرها، فيقومونه عند إنحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير في طريقها، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر ﷺ الناس في خطبته إلى تقويم ما عساه يكون فيه من الإعوجاج في تنفيذ أحكام الشرع الشريف، وقال تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» إذ لا يخفى أن هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم إلى الخير وتأمرهم بالمعروف

وتنهاهم عن المنكر، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكمًا كان أو محكومًا. وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم، بل للوجوب والفرض كما صرح به العلماء..».

هذا مقال كتب قبل نيف وسبعين سنة، ولو كتب اليوم لما ميزه القاريء من أحدث الأساليب في القصد وصحة الأداء.

واستفاد سعد من عمله في «الوقائع المصرية» مالا يستفيده كل عامل في تحريرها، إذ كان من موضوعات «الوقائع» أن تنشر نقدًا متواليًا لأحكام المجالس الملغاة، فعكف على دراسة المسائل القانونية وإستعان على فهمها بما يعلمه من فقه الشريعة، ولم يلبث أن رشحه علمه بالشريعة والقانون لوظيفة شبيهة بوظائف القضاء، فوقع عليه الإختيار لوظيفة ناظر قلم القضايا بمديرية الجيزة، وكان من إختصاصها إصدار الأحكام في كثير من المواد الجزئية.

المحامي العصامي

وترك وظائف الحكومة بعد الثورة العرابية ليشتغل بالمحاماة، فأسبغ على هذه الصناعة كرامة لم تكن معهودة لها بين أهلها ولا بين جمهرة الأمة في ذلك الحين، وحسبنا من الدلالة على هوان شأنها يومئذ أنه كما قال في خطابه للمحتفلين بتوليته القضاء قد لجأ إليها «والخجل يستر وجهه لسقوط إعتبار من كانوا يتعاطونها». وخطب في ذلك الحفل زميله حسن الشمسي فقال: «أن في القضاة من تغالى في حب الإستقامة حتى إرتاب

أن يكون في طائفتها مستقيم..»

وهذه هي الصناعة التي أعطاها كعادته ما لم يكن لها قبل إشتغاله بها، وما لم تأخذه قط من مشتغل بها قبله: أعطاها المكانة التي ترشح واحدًا من أبنائها لمركز القاضي بمحكمة الإستئناف، وكان أول محام أسند إليه منصب قاض في تلك المحكمة (سنة ١٨٩٢).

القاضي العصامي

وأصبح المحامي العصامي صانع نفسه، قاضيًا عصاميًا صانعًا لنفسه كذلك، فتعلم اللغة الفرنسية وتقدم لإمتحان الحقوق في باريس، فنال إجازتها بدرجة متفوقة، وجمل إسمه علمًا من أعلام القضاء المصري يفخر به قضاة مصر وطلاب القانون فيها حتى اليوم.

وما شأن قاض والتعليم وهو في محكمته بين قضاياه؟..لا شأن له به ولا لوم عليه إذا إكتفى بعمله وليس هو بالعمل اليسير، ولكنه إذا كان قاضيًا كسعد فرض على نفسه في كل صناعة ما لم يكن مفروضًا عليه ولا على أحد من أبنائها، فمن منزله صدر المنشور بإنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ وبإرشاده وتدبيره نشأت الجامعة وكتب لها البقاء.

وكانت معونته على كل عمل من أعمال التربية القومية مشجعًا للقائمين بها على إختلاف هذه الأعمال، فساعد الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ومصطفى كامل صاحب اللواء على إحياء الصحافة المصرية، وساعد قاسم أمين على الدعوة إلى تحرير المرأة، فلم يجد قاسم من يهدي إليه كتابه غير سعد زغلول.

وتكررت في القضاء تلك الخصلة التي لازمته في كل مرحلة من مراحل حياته، فكان القاضي الأول الذي انتقل من القضاء إلى الوزارة حين أريد تجديد التبعات الوزارية، وندع التقدير هنا للغرباء لأن أفضل الفضل ما شهد به الغريب.

قال المسيو دى هولتز الذي خطب في الإحتفال بتوديعه القضاء لأنه كان أكبر المستشارين سنًا: «ربما خطر ببالك عندما تركت المحاماة إلى القضاء أن ذلك كان شرفًا لك، نعم إنه كان شرفًا ولكنه شرف لنا معشر القضاة، شعرنا به عقب وجودك بيننا إذ تمكنا من أن ننظر عن كثب إلى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك».

وقال المركيز زتلاند في ترجمته للورد كرومر: «إن كرومر نفسه قد خطا في سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة إلى الأمام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصري معروف بنزعته الوطنية وزيرًا للمعارف، ونعنى به سعد زغلول..».

وكان لورد كرومر يلقب في مصر بقيصر قصر الدوبارة، ويقول شاعر الأمير في تشييعه بعد إعتزاله:

أو حاكمًا في أرض مصر بأمره لا سائلًا أبدًا ولا مسئولًا

فتمام التقدير الذي رأيناه من دى هولتز ورتلاند أن نسمع قيصر قصر الدوبارة يقول عن سعد أنه علمنى كيف أحترمه..ولم يقلها كرومر قط عن أحد سواه.

الوزير العصامي

كان أول وزير مستقل بإرادته مع المستشار الإنجليزي على ما كان معلومًا يومئذ من إلزام الوزير أن يستمع إلى المستشار، وفقًا لبرقية اللورد جرانفيل.ولم يكن مستقلًا عن المستشار وحسب، بل بلغ من إستقلاله أنه حافظ عليه أمام الخديو واللورد كتشنر مجتمعين متفقين، فطلب عزل الوصي على دائرة الأميرة صالحة وهو معين من قبل الخديو وصديق شخصي لكتشنر يصاحبه على الدوام في رحلات الصيد والرياضة، ولما حيل بينه وبين محاسبة الرجل إستقال من وزارة الحقانية وعاد إلى المحاماة.

وتبدو كلمة «عاد إلى المحاماة» بسيطة سهلة في هذا السياق، لأننا عرفنا في الأيام الأخيرة وزراء كثيرين خرجوا من الوزارة وقيدوا أسماءهم بجدول المحامين.

أما قبل أربعين سنة فلم تكن بسيطة ولا سهلة، بل كانت دهشة الناس لها كدهشتهم لخوارق العادات، فلم يحدث أن وزيرًا خرج من الوزارة فإشتغل بعمل آخر كائنًا ما كان، لإعتقادهم أن الوزارة أرفع شأنًا من كل عمل فلا يحسن بمن إرتفع إليها أن ينزل إلى ما دونها، وإلا فهو يهين نفسه ويبتذل إسمه بالعمل كما يعمل خلائق الله!

النائب العصامي

ولحقت بهذه الدهشة دهشة أخرى أكبر منها وأبعد منها عن خواطر ولاة الأمور وسائر المصريين.فلم يخطر للخديو ولا للوزارة ولا للعميد

البريطاني عند التفكير في إنشاء الجمعية التشريعية أن سعدًا سينزل إلى ميدان الإنتخاب ليطلب أصوات الناخبين ويزاحم المرشحين، ولعلهم لو خطر لهم هذا الخاطر لإتخذوا له من الحيطة ما يريحهم من عواقبه المعروفة والمجهولة..إلا أن العصامية لا تكون جديرة بإسمها إن فعلت ما يتوقع منها ولم تزد عليه. فنزل سعد إلى الميدان على خلاف ما قدروه، ونجح في دائرتين لا في دائرة واحدة، وتغلب على المزاحمة القوية ومن ورائها سلطان الوزارة وسلطان القصر وسلطان الوكالة البريطانية، وظفر في داخل الجمعية بكثرة الأصوات عند الترشيح لمنصب الوكيل المنتخب. أما الرئيس والوكيل الآخر، فقد كان دستور الجمعية ينص على إختيارهما بالتعيين.

الزعيم العصامي

ثم برزت العصامية الكبرى في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فنهض وكيل الجمعية التشريعية بزعامة الأمة كلها، وذهب على أثر إعلان الهدنة إلى دار الحماية البريطانية يطالب بإستقلال البلاد، وكانت دهشة لم يتوقعها عميد دار الحماية فقال متعجبًا مستوثقًا: «كأنكم تطلبون الإستقلال؟!»

قال سعد: «نعم..ونحن له أهل».

ولحسن الحظ دائمًا أن العصامية تأتي بغير المتوقع، فلو أن رجال الحماية البريطانية توقعوا هذه المطالبة لما أعياهم أن يحولوا بين سعد وبين دعوى الوكالة عن الأمة. إنهم كانوا لا يستطيعون أن يخيفوه ولا أن يثنوه عن عزيمته، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يمنعوا كتابة التوكيلات له في طول

البلاد وعرضها، فلا يظهر صوت الرأي العام على حقيقته كما ظهر من تلك التوكيلات التي وقعها المصريون بعشرات الألوف.

ثم كانت زعامة ولا كل الزعامة.

كان في مصر زعماء يقول الخصم عنهم أنهم يتكلمون بإسم طبقة الباشوات ولا يتكلمون على هذا بإسمها جمعاء.

وكان في مصر زعماء يقول الخصم عنهم أنهم شبان طائشون يتبعهم طائفة من الطلبة والتلاميذ.

وكان فيها زعماء يقال عنهم إنهم لا يمثلون أصحاب المصالح الحقيقية ولا يجمعون حولهم من لهم حق الإنتخاب.

وكان فيها زعماء يقال عنهم أنهم ينكرون الحماية البريطانية ويرضون بالسيادة التركية، أو يقال عنهم أنهم متعصبون لا يؤتمنون على مخالفيهم في الدين، أو يقال عنهم أنهم غير مصريين وليس لهم من الوطنية الصحيحة نصيب. كان في مصر زعماء، ولم يكن فيها زعيم.

فلما نهض سعد بأمانة الزعامة إذا بالأمة كلها تدين بزعامته، وإذا بها أول زعامة مصرية يتبعها الأغنياء والفقراء والشيوخ والشبان، والرجال والنساء، والمسلمون والمسيحيون، ولم تسبقها في الزمن الحديث زعامة وطنية إلى توحيد وطني كهذا التوحيد العجيب.

وكل هذا بدع في العصامية لا يتكرر في سيرة كل عصامي خالق لمجده،

ولكنه فيما نرى قد ترك في سيرة هذا الرجل الفذ محلًا لمزية عصامية أعسر على طلابها من جميع هذه المزايا، وهي المزية التي تتخطى حواجز العصبية القومية وفوارق المعيشة البيتية، فقد كانت تقاليد البيت «الأرستقراطي» في مصر تأبى على أهلها أشد الإباء أن يتزوجوا من أبناء الفلاحين أو بنات الفلاحين، لأن الطبقة الأرستقراطية كانت تتربى على المعيشة التركية وتتكلم التركية في بيوتها بدلًا من العربية، ولم يتفق فيما نعلم أن أحدًا ممن عاشوا هذه المعيشة رضى بمصاهرة فلاح من الريف على الخصوص، وكان سعد من صميم الفلاحين الريفيين فتقبلته هذه البيئة أحسن قبول، ثم كان إعجاب قرينته به وبأدبه في بيته مثلًا نادرًا بين الأزواج من بيئة واحدة بل من أسرة واحدة، فكادت إقامة زوجته في ضريحه أن تغلب على مقامها بدارها، وكانت تقضي معظم نهارها في الضريح ثم تختار للجلوس في دارها الحجرة التي تطل عليه.

وتوفي سعد وهو رئيس لمجلس النواب، فمن تحصيل الحاصل بعد ما تقدم أن يقال أنه كان كعادته في هذه المرحلة الأخيرة من عمره: رئيسًا ولا كل رئيس.

وإذا كانت للعصامية طبقات فهذه هي طبقتها العليا، أو هذه هي العصامية بين العصاميين.